Subject : سَبَبُ الرَّمَادِ وَالنَّاسِ

اَلتَّمْرِينُ الْإِنْشَائِيُّ

هُوَ فِي فِكْرٍ عَمِيقٍ فِي مَنْظَرٍ ذَاكِرَةُ النَّاصِيَةِ كَأَنَّهُ فِي النَّوْمِ الْعَمِيقِ. ظَهَرَتْ ذَاكِرَتُهُ مِثْلَ شَمْلَةٍ صَغِيرَةٍ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ. بَعْضُهَا حُلْوَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهَا مُرَّةٌ. اِنْقَطَعَ ذَاكِرَتُهُ صَوْتُ عَادِمَةٍ فِي الطَّائِرَةِ: "يَا سَيِّدِي، تَشْرَبُ الشَّايَ أَوِ الْقَهْوَةَ؟". اِسْتَيْقَظَ مِنَ النَّوْمِ وَفَتَحَ عَيْنَاهُ. وَإِذَا رَأَى نَائِمَةً اِمْرَأَةً جَمِيلَةً عَلَى وَجْهِهَا شَبَشَبًا مُلَوَّنًا. وَسَأَلَ أَيْضًا: "تَشْرَبُ الشَّايَ أَوِ الْقَهْوَةَ يَا سَيِّدِي؟". وَاخْتَارَ الشَّايَ. ثُمَّ شَرِبَ قَلِيلًا قَلِيلًا.

نَظَرَ إِلَى السَّاعَةِ ثُمَّ قَالَ فِي نَفْسِهِ نِصْفُ سَاعَةٍ فَقَطْ! أَقْتَرِبُ إِلَى بَلَدِي الْمَحْبُوبِ وَوَصَلَ إِلَى بَلَدِي الْحَبِيبِ طُولَ عَشَرَةَ عَشَرَ سَنَةً. فِيهَا وَالِدَتِي الْمَحْبُوبَةُ وَفِيهَا بَيْتِي الَّذِي أَنْشَأَ وَلَا أَجِدُ لَيْسَ لِي عَلَاقَةٌ إِلَى هَذِهِ الْبَلَدِ طُولَ سَنَوَاتِ الْمَذْكُورَةِ. تَنَبَّهَ الْمُسَافِرِينَ لِلْإِحْتِفَاظِ. إِنَّ الطَّائِرَةَ قَدْ هَبَطَتْ بَعْدَ قَلِيلٍ.

خَرَجَ مِنَ الْمَطَارِ إِلَى الْخَارِجِ بِحَقِيبَةٍ ضَخْمَةٍ. رَأَى كَثِيرٌ مِنَ الْمَوْجُودِ عَمَّ مَفْهُومٍ. نَظَرُوا إِلَى الدَّاخِلِ مَعَ الرَّجَاءِ وَهُمْ يَنْتَظِرُونَ أَقْرِبَائِهِمْ - أَيْ إِنْتِظَارُ الْحُلْوَةِ.

كَمْ مِنْ تَغَيُّرَاتٍ هُنَا. هَذَا بَلَدِي أَمِ الْخَلِيجِ. وَاللّٰهُ عَجِيبٌ! قَدْ تَغَيَّرَتْ بَلَدِي وَتَغَيَّرَ النَّاسُ أَيْضًا. تَغَيَّرَ فِي الْمَلَابِسِ وَالْمَرَاكِبِ وَالْمَبَانِي وَالشَّوَارِعِ هَذَا مِثْلُ الْخَلِيجِ.

"سَيَّارَةُ الأُجْرَى، سَيَّارَةُ الأُجْرَى". إِقْتَرَبْتُ إِلَى سَيَّارَةٍ مِنْهَا ثُمَّ قَالَ لِسَائِقٍ إِلَى دَلْعِي. وَضَعَ السَّائِقُ الْحَقِيبَةَ وَالأَشْيَاءَ عِنْدَهُ إِلَى دَاخِلِ سَيَّارَةٍ. جَلَسَ عَلَى مَقْعَدٍ لَيِّنٍ وَالْتَفَتَ السَّائِقُ إِلَى الْوَرَاءِ. ثُمَّ سَأَلَ "صَاحِبِي، نَذْهَبُ؟" قَالَ "نَعَمْ، نَذْهَبُ". وَانْتَقَلَ سَيَّارَةٌ نَحْوَ دَلْعِي. نَظَرَ إِلَى الْخَارِجِ. فَرَأَى كَثِيرٌ مِنَ الْمَنَاظِرِ مُلَوَّنَةٌ وَغَيْرُ مُلَوَّنَةٌ. فَظَهَرَ فِي مَخَيِّلَتِهِ بَيْتُهُ وَقَرْيَتُهُ وَأَتْبَاعُ طُفُولَتِهِ وَذِكْرَيَاتٌ بِهَا يَتَعَلَّقُ بِأُمِّهِ.

رَأَى فِي مَنْظَرِهِ صُورَةَ وَالِدَتِهِ النَّحِيفَةَ وَمَلَابِسَهَا الْبَالِيَةَ. وَقَرَأَتْ الْخَوَاطِرَ الَّتِي ظَهَرَتْ فِي وَجْهِ أُمِّي بِمَا يَتَعَلَّقُ بِالْفَقْرِ وَالْجُوعِ. وَسَبَبٌ لِتَسْوَدِّ وَجْهِهَا مِثْلَ الْعَمَامِ السَّوْدَاءِ. وَكَمْ مِنْ مَتَاعِبَ وَمَشَاقٍّ فِي تَرْبِيَةٍ وَكُلْفَةٍ لِإِبْنِهِ. وَحَزِنَتْ بِسُوءِ حَالِهِ إِذَا رَأَى الأَطْفَالَ وَذِهَابَهُمْ إِلَى الْمَدَارِسِ وَالأَسْوَاقِ وَذَلِكَ الْبَيْتِ. الَّذِي انْشَأَتْ، لَا، ذَلِكَ الْبَيْتُ وَهِيَ كُوخًا صَغِيرًا. إِذَا نَزَلَ الْمَطَرُ عَلَيْهَا لَمْ يَصِلْ الْمَاءُ إِلَى الْخَارِجِ. وَمَا صَبَكَتْ فِي رِيحٍ، وَهَذَا لِحَظَّنَا فَقَطْ!

وَالذِّهَابُ إِلَى مَدْرَسَتِي فِي صَبَاحِ أَيَّامِ الْمَطِيرَةِ هَذَا عِقَابٌ لِي إِنْ لَمْ يَكُنْ أَصْدِقَائِي ظِلِّي مِنْ هَذَا الْمَطَرِ إِلَّا أَوْرَاقُ الْقُلْقَاسِ وَبَلَلُ قَمِيصِ الْقَدِيمِ بِالْمَطَرِ وَبِالْبَرْدِ لِهَذَا الْمَطَرِ وَقَدْ انْحَمَلَ هَذَا الْبَرْدُ إِلَى أَهْلِي. وَشَتَمَنِي الْمُدَرِّسُ الصَّفِّ فِي صَوْتٍ غَشُوشٍ: "مَا هَذَا الشَّكْلُ؟ أَأَنْتَ خَرَجْتَ مِنَ الْبَيْتِ أَمِ الْغَابَةِ؟" وَشَتَمَ أَخِيرًا. وَالِدَتِي الَّذِي كَفَلَتْنِي وَمَا عَرَفَ لِلْمُدَرِّسِ مَنْ أَبِي وَسَأَلْتُ لِوَالِدَتِي مِنَ الْمَنَاصِبِ الْمُشْكِلَةِ مَنْ أَبِي. سَكَتَ أُمِّي سُكُوتًا طَوِيلًا